

دراسة حول حيوية فكرة زوتشيه

منذ نعومة أظفاري عندما بدأت أتفهم الحياة على الساحة الدولية، واهتماماتي كانت مبكرة في المجال المتعلق بالفكر الثوري الكوري، في وقت مبكر من حياتي وأنا معجب بل مفتون بالفكرة الخلاقة التي أبدعها الرئيس الراحل كيم إيل سونغ، فلسفة وفكرة زوتشيه.

ودوماً كنت أسأل نفسي أسئلة حول لماذا أنا معجب ومأخوذ بهذه الفكرة إلى هذا الحد، هل أنا مخطئ في قناعاتي، أم كيف يبدو الأمر.

في الواقع أقول وفي بداية أسطري، إن هذا الإرث الفكري الثوري الخلاق الذي تجسد بفكرة زوتشيه تميز بعظمة ما يصبو ويهدف إليه على أرض الواقع في التطبيق، لأن هذا الفكر أتى منسجماً مع الواقع ومع حاجة المجتمعات إلى تطبيق فكر ينهي مآسيها ويجعلها مبدعة في تسيير أمور مجتمعاتها على نحو مستقل خلاق.

وبدون مبالغة وببساطة إن من يستعرض تاريخ كفاح الشعب الكوري الديمقراطي في بناء دولته يدرك فعلاً وبدون أدنى شك أن جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية شهدت منذ استقلالها وتشهد إنجازات خالدة عظيمة شملت كل المجالات بدءاً بالحفاظ على الاشتراكية وقيم العدالة الاجتماعية وانتهاء بالقواعد الإنتاجية التي كان نتيجتها دولة قوية مزدهرة تتحدى كل المحن والشدائد والصعاب.

فجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية اليوم هي دولة قوية قادرة عسكرياً بحسب حسابها من قبل الأعداء، وذات اقتصاد قوي ودولة فاعلة لها وزنها على الصعيد السياسي.

لقد تجلت قدرتها العسكرية في تصديها لكل عدوان عليها ولكل المؤامرات الخارجية التي حيكت ضدها وتحاك على الدوام من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وعملائها.

كما تجلى اقتصادها القوي بالازدهار الصناعي والزراعي والذي يزداد نوعية متميزة يوماً بعد يوم، وتتجلى فاعليتها السياسية بأنها قادرة على فرض إملاء إرادتها على المستوى الدولي.

مع أن جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية تعد اليوم بلداً صغيراً من حيث الحجم الجغرافي وعدد السكان، ولكنها على الساحة الدولية دولة كبرى فاعلة لا يمكن تجاهلها شاء من شاء وأبى من أبى.

هنا لو عدنا للتساؤل ما سبب ذلك، ما سبب الإنجازات العظيمة، بسهولة نقول لأن هذه الدولة أسسها وبنائها الراحل العظيم كيم إيل سونغ على أساس فلسفة

زوتشيه، وعلى تلاحم فريد بين الشعب والحزب والجيش، ولأنها تقاد عبر التاريخ ومنذ تأسيسها من قبل قيادة حكيمة ذات مراس وخبرة تجسدت بداية بالمؤسس الراحل كيم إيل سونغ وتابعه في نهجه وأسلوبه الفذ في القيادة القائد العظيم الراحل كيم جونج إيل، واليوم يستمر العطاء والإبداع المبنيان على أسس زوتشيه تحت قيادة الرفيق المحترم كيم جونج أون.

فعلى الرغم من الحصار المتكرر والمستمر والعقوبات الجائرة والمؤامرات من قبل دولة الشر والعدوان الولايات المتحدة الأمريكية وعملائها في شبه الجزيرة الكورية، بنى الكوريون الدولة المستقلة القوية المزدهرة صاحبة المنجزات، لأن جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية سارت وتسير على هدى زوتشيه، وتتبنى القضايا الإنسانية العادلة. فهي أنجزت وتنجز اقتصادها المتين وكل ما تريد بالاعتماد على مواردها وقواها الذاتية. وحافظت على تجربتها الثورية العظيمة في وقت انهارت فيه التجارب الاشتراكية في العالم، وما زال الشعب الكوري يسير بخطى واثقة ومتسارعة في بناء الدولة الاشتراكية والمزدهرة.

إن دول العالم ومجتمعاته بأمس الحاجة اليوم لفكرة خلاقة هادية كفكرة زوتشيه لاعتبارات عدة، لعل أولها، أن فكرة زوتشيه الخالدة، التي اعتبرت أن الإنسان أثنى كائن على وجه الكرة الأرضية، وأنارت الطريق الصحيح لجماهير الشعب لصنع مصيره بصورة مستقلة. و اعتبرت أن تاريخ تطور المجتمع البشري هو تاريخ نضال جماهير الشعب في سبيل الدفاع عن الاستقلالية وتحقيقها. إذ إن فكرة زوتشيه تعد نظرة علمية جديدة إلى العالم تعكس بدقة تطلعات جماهير الشعب للاستقلال، وتشكل هذه الفكرة - بما لا يدع مجالاً للشك - الأساس الفكري النظري والمرشد الهادي الوحيد للثورة والبناء.

فهذه الفكرة تؤكد أن سيد الثورة والبناء هو جماهير الشعب وهي القوة الدافعة للثورة والبناء، وبشكل آخر إن الإنسان هو سيد مستقبله وهو مقرره، فالإنسان هو سيد كل الأشياء وهو الذي يقرر كل الأشياء، وجماهير الشعب هي الذات الفاعلة للتاريخ الاجتماعي.

وكما عبر القائد الراحل كيم جونج إيل عن الفكرة بقوله: « إن الأهمية التاريخية لفكرة زوتشيه تتمثل في أنها أوضحت النظرة الثورية الحقيقية العامة إلى العالم، التي يتطلبها عصر زوتشيه، وفتحت مرحلة جديدة متقدمة في تطور النظريات الثورية.»

ويمكن التأكيد من الوقائع والتجارب التاريخية أثبتت ذلك، أنه مع فكرة زوتشيه أصبحت البشرية التقدمية على صعيد العالم تمتلك سلاحاً فكرياً قوياً وفعالاً في مسيرتها النضالية للوصول إلى تحررها ونضالها ضد الإمبريالية.

والمهم والمنطقي جداً في الأمر أن الإنسان عندما يقتنع أنه صاحب مصيره وسيد نفسه، لا بد أنه سيمتلك إرادة لا مثيل لها وقوة جبارة، ويمتلك ثقة بالنفس تشكل قوة محركة للإبداع ومفتاح أساسي وهام جداً لكل النجاحات والانتصارات.

وهذا ما حصل مع الشعب الكوري، حيث حرر الشعب الكوري الوطن بقواه الذاتية وبشجاعة منقطعة النظير من الحكم الاستعماري الياباني، كما تصدى لغزو قوات التحالف الإمبريالي بزعماء الولايات المتحدة الأمريكية وحقق الانتصار تلو الانتصار. لأن فكرة زوتشيه خلقت الإنسان الكوري التي يمتلك طاقات خلاقة وإرادة وتصميم ليس لهما مثيل. وبفضل فكرة زوتشيه أصبح الشعب سيداً يشارك في حكم بلده باقتدار.

إن إنجاز الرئيس الراحل لفكرة زوتشيه منذ انطلاقه في الثورة مبكراً، ساهم في حل المشاكل والصعوبات والمحن التي واجهها الشعب الكوري عبر تاريخه، فهذه النظرية الخلاقة هي النظرية التي وضعت الأمة الكورية على طريق العدالة والحقيقة والانتصار الدائم وهي التي ضمنت الاستقلالية.

أما ثاني هذه الاعتبارات التي تقرض وتبرر الحاجة في الوقت الراهن لفكرة خلاقة كفكرة زوتشيه، هو أنها بما أتت به من أفكار تعد رداً على المنطق والعقائد الذي يروج لها الغرب الأوروبي والأمريكي والأفكار الهدامة للمجتمعات التي تنطلق من تلك الجهات، حيث تعد هذه العقائد وأفكارها التي تروج لها الولايات المتحدة الأمريكية اليوم العدو الحقيقي للبشرية، ونقصد هنا أهم هذه العقائد المتجسد بتيار الليبرالية الحديثة، هذا التيار الذي لم يكن واضحاً للكثيرين، والقلّة من الناس تعرف عنه.. طبعاً يختلف حتى عن الليبرالية بمفهومها القديم.

فالليبرالية الحديثة هي تشبه الآن الحديث عن تسويق الديمقراطية بالنسبة لأمريكا.. يستخدمون الديمقراطية من أجل الهيمنة على الشعوب ويستخدمون حقوق الإنسان من أجل شن الحروب (وهذا ما عبر عنه بحكمة الرئيس بشار الأسد). أساس منهجيتها هو تسويق الانحلال الأخلاقي بشكل كامل وفصل الإنسان عن أي مبادئ أو قيم أو انتماءات أو عقائد من أجل الوصول لأهدافها.

وإذا دققنا في أهداف ومقاصد هذه الليبرالية، يلاحظ أن المطلوب هو ضرب إنسانية الإنسان وهنا تتناقض مع كل فكر بناء وعلى رأسه زوتشيه.. لأن زوتشيه وأفكارها السامية أتت من أجل تكريس الإنسانية فتأتي الليبرالية الحديثة لتفصل الإنسان عن إنسانيته. منهجية هذه العقيدة، أنها ترفض العقائد لأنها تطلب من الإنسان ألا ينتمي للعقائد.. منهجيتها هي أن تحول مرجعية الفرد من المرجعية الجماعية.. كما هو الحال الطبيعي بالنسبة للبشر.. إلى

مرجعية الفرد.. وبالتالي مرجعية الفرد المقصود فيها رغباته فقط، فكل ما يرغب به هذا الفرد هو صحيح بغض النظر عن المجتمع.. فإذاً رغبات الفرد هي الأساس لا الأسرة ولا المجتمع الأكبر.. انسلاخ الفرد عن هذه القيم هو منهجية ثانية.. الانسلاخ عن الأسرة والانسلاخ عن الوطن.. فإذاً هو لا ينتمي إلى أي شيء.. ينتمي لنفسه في الداخل.. وينتمي لهذه العقيدة الليبرالية.. هم يسوقون أن هذه العقيدة هي ليست عقيدة.. هي ترفض العقائد لكن في الحقيقة هي عقيدة، بل وعقيدة خطيرة جداً. ففي الوقت الذي تؤكد فكرة زوتشيه أن جماهير الشعب هي الذات الفاعلة للتاريخ الاجتماعي، وأن تاريخ تطور المجتمع البشري هو تاريخ نضال جماهير الشعب، تؤكد الليبرالية الحديثة على الفرد تحديداً، وتفصله عن إنسانيته وعن قيمه وعقائده، كي تسهل قيادته بالاتجاه المطلوب. باختصار إن الليبرالية الحديثة هي أيديولوجيا ذات هدف سياسي، وهي تؤسس لبنية اجتماعية مناقضة تماماً للبنية الاجتماعية التي تطرحها فكرة زوتشيه. أمام هذا الكلام فالمجتمعات اليوم بأمرس الحاجة لتفعيل زوتشيه واتخاذها طريقاً للرد على كل الأفكار الهدامة على الساحة الدولية. وفي الوقت الراهن أكثر من أي وقت مضى، ينبغي التفكير بجدية وعلى الدوام بصيانة نقاء فكرة زوتشيه والعمل على تعميقها وتطويرها. لأن كل من يدرس التجربة الكورية بمنطق وصدق ويرى حجم وكم المنجزات على أرض الواقع وعلى جميع الأصعدة، يعلم كم هذه الفكرة خلاقة وصحيحة ونقية في تطوير المجتمعات. ولا نبالغ إذا قلنا أن سر تطور وازدهار جمهورية كوريا يعود إلى الإرث الفكري الذي أبدعه الرئيس الراحل من خلال فكرة زوتشيه.

النقطة الثالثة والمهمة جداً والتي تؤكد أهمية وضرورة التمسك والحفاظ على فكرة زوتشيه في الوقت الراهن بشكل ملح، هو أنه ساد في الفترات السابقة هجمات متواصلة على الفكر الاشتراكي بشكل عام وعلى فكرة زوتشيه بشكل خاص. فالعولمة وأدواتها اليوم سوقت وتسوق أفكاراً غاية في الخطورة ومنها أن الاشتراكية كنظام سياسي واجتماعي واقتصادي استنفذ جميع إمكانياته وفقد دوره، والرأسمالية انتصرت على الاشتراكية، والاشتراكية انهارت في النهاية. وهذا الكذب والتلفيق أقل من أن نرد عليه، ولكن يمكن القول: فعلاً هناك أخطاء تمت في بعض التطبيقات العملية للاشتراكية على أرض الواقع في بعض الأنظمة، ولكن إن البشرية لا تستطيع أن تتخلى عن تراثها، والوقائع التاريخية أكدت أنه ما من منظومة فكرية أو فلسفية أو سياسية، حملت للبشرية أملاً عريضة وحلولاً إنسانية رائعة لمشاكل الناس والمجتمعات، كما حققت الاشتراكية، لقد حققت الشعوب بفضل الاشتراكية انتصارات عظيمة ضد النظم الاستعمارية، ونقلت تلك المجتمعات إلى مستويات راقية متقدمة وأمنت السيادة

المطلقة للكثير من الشعوب والمجتمعات. ومن غير المنطق أن تنسى البشرية ما قدمته الاشتراكية لشعوبها، وما قدمته للتطور الإنساني ككل فلسفياً وتطبيقياً. وإذا ما حصل أخطاء على أرض الواقع في بعض التجارب الاشتراكية لا يعني أن الخلل في الفكر وإنما في التطبيق المشوه على أرض الواقع، إذ أمام هذه الإدعاءات والأطروحات وأمام الهجمات على كل ما تبقى من الفكر الاشتراكي عالمياً، نؤكد أنه لا بد من صيانة وتعميق فكره زوتشيه الخلاقة.

النقطة الرابعة، أن ما حصل على الساحة الدولية جعل الكثيرين من المثقفين يظهرون عدم الفهم الدقيق لما أتت به الزوتشيه. لذلك لا بد من نشر فلسفة وفكرة زوتشيه وطرحها بشكل واضح وممنهج بحيث لا تكون عصية على الفهم، وبما ينسجم مع التطورات والمتغيرات على الصعيد العالمي، وهذا الأمر يجب أن يتم بشكل جدي بهدف الحفاظ على فكرة زوتشيه وتألقها وفعاليتها وإبعادها عن كل ما هو تحريفي مضلل، وعن كل التيارات المتخاذلة، أو الانتهازية. فالشفافية والوضوح هما الأساس للحفاظ على جوهر ومضمون فكرة زوتشيه، وزيادة قوتها وجعلها أكثر جاذبية.

إذ إن التأكيد على فكرة زوتشيه ينبع من التفسيرات الخاطئة لهذه الفكرة، وعدم فهمها الصحيح من قبل الكثيرين، وهناك أسئلة كثيرة في هذا الصدد تحتاج إلى الإيضاح وهي في غاية الأهمية، ويفترض عقد مؤتمرات لفكرة زوتشيه ولا يمنع أن تكون بفترات متقاربة لتلافي كل الإشكالات والفهم الخاطئ لزوتشيه.

النقطة الخامسة، أن هناك خلط حول ما حققته فلسفة زوتشيه في تطور تاريخ الفلسفة، هل يكمن في دورها تطوير المادية الديالكتيكية الماركسية، أم هي مبادئ فلسفية جديدة تركز على الإنسان. وهنا يجب التأكيد أن فلسفة زوتشيه طرحت مفاهيم جديدة حول العلاقة بين الكون والإنسان، وأنارت الطريق لصياغة مصير الإنسان. لقد أوضحت فلسفة زوتشيه إيضاحاً علمياً لأول مرة في التاريخ حيث ركزت على خصائص الإنسان الجوهرية، وقدمت الإنسان ككائن أكثر تفوقاً واقتداراً في العالم، وطرحت رأياً جديداً عن العالم يفيد أن العالم يسيطر عليه الإنسان ويغيره.

من المؤكد أن هناك اختلافاً جوهرياً بين النظرة العامة المادية الديالكتيكية إلى العالم، ونظرة فلسفة زوتشيه إلى العالم، فالاختلاف بين الفلسفتين يكمن في الاختلاف في النظر إلى الإنسان. إن أهمية الفهم الدقيق لفلسفة زوتشيه، غاية في الأهمية وذلك من زاوية عدم الخلط بين المادية الديالكتيكية والأخطاء التي اعترت تطبيق الماركسية على أرض الواقع، وبين فلسفة زوتشيه كنظرية خلاقة لا تنطبق على الفلسفة السابقة.

النقطة السادسة، ويفترض التأكيد عليها والإشارة إليها والوقوف عندها هو أن الفجوات تزداد بين الأفكار القيمة وبين ما يطبق من هذه الأفكار على أرض الواقع، أي أن المشكلة الأساسية تكمن في الفجوة بين النظري والعملي، بين الفكر والواقع.

ونحن بدون موارد نقول إن فكرة زوتشيه كامنة في ضمير ووجدان الزوتشيين، قولاً وعملاً، وبالتأكيد إذا ففتشنا عن السبب، يمكننا التأكيد أن السبب هو وجود قادة عظام كرسوا حياتهم بتفان وإخلاص في سبيل تطبيق هذه الفكرة التي أدت لتكوين مجتمع راق بكل المقاييس وعلى جميع الأصعدة بفضل السير على هدى زوتشيه. فالرئيس الراحل المؤسس كيم إيل سونغ، ومن ثم القائد الراحل كيم جونج إيل الذي أغنى الفكرة وزادها ألقاً، وأخيراً القائد المحبوب المخلص لشعبه والوفى للإرث الفكري العظيم يتابع السير على نفس النهج، لذلك طبقت الزوتشية جوهرًا وروحًا على أرض الواقع كما أرادها الرئيس الراحل كيم إيل سونغ.

النقطة الأخيرة التي أود الإشارة إليها، أي مؤمن من أعماقي برسالة حزبي (حزب البعث العربي الاشتراكي) الذي أنتمي إليه، بالأمة العربية الواحدة، وبأهدافه في الوحدة والحرية والاشتراكية، ومؤمن بأن الأمة العربية قدرها الوحدة، تحت راية الحرية (دولة عربية حرة مستقلة). مؤمن بالاشتراكية (العدالة الاجتماعية) مستقبلاً للأمة العربية، رغم كل ما يطرح على مستويات عدة من نهاية الأحزاب الثورية ونهاية الأيديولوجية، وانهيار الاشتراكية. وكلي ثقة وإيمان أن بالقيادة الحكيمة الفذة للرئيس بشار الأسد، بالوصول في وطني سورية إلى بر الأمان بعد سنوات الحرب الظالمة التي خاضتها قوى الشر وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في العالم وعلى مدى عقد من الزمن. فوضعنا اليوم في سورية يذكرني بالأوضاع التي مرت بها جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية. فالوضع متشابه جداً.

وبناء على ما تقدم، إن السير على هدى زوتشيه هو طريق الخلاص من قهر الإمبريالية العالمية لشعوب العالم. وهو الطريق لتحقيق أهدافنا نحن في جمهورية كوريا الديمقراطية وفي سورية، فكلانا ينتمي إلى أمة مجزأة، فرض عليها التقسيم بفعل الاستعمار والإمبريالية، وتحتاج إلى توحيد، والوضع الطبيعي أن تكون كل منهما أمة واحدة على أرضها الواحدة. وكلا الدولتين تتآمر عليهما الإمبريالية العالمية لمنع توحيد أراضيها وللنيل من استقلالها الحقيقي، فالولايات المتحدة الأمريكية ما تزال مستمرة في تدخلها الوقح والسافر في الشؤون الداخلية سواء كان في الأمة العربية أم في الأمة الكورية، بمختلف الأشكال من التدخلات. لذلك ما جمعنا كسوريين تحديداً مع الكوريين

هو خندق واحد ضد الظلم والبغي العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية وصنيعتها "إسرائيل" في المنطقة العربية، وضد الاستفزازات الأمريكية وعملائها في شبه الجزيرة الكورية. باختصار إن الاعتماد والبناء على أساس زوتشيه هو الذي سيحقق أهدافنا وتطلعاتنا في سورية وكوريا، وسيكون تطبيق زوتشيه هو نصر وازدهار لكل الأمم المظلومة على الساحة الدولية، لأن التجارب أثبتت حيوية وألق هذه الفكرة الخلاقة زوتشيه في إحباط مخططات ومؤامرات الإمبريالية العالمية على شعوب العالم.

وأخيراً، نشير بهذا الصدد، بأننا في كل من بلدينا يوجد حزب ثوري يقود البلد، ونؤكد هنا أن الأحزاب الثورية لم تستنفذ ولم ينته دورها في تاريخ وحاضر ومستقبل البشرية، وهكذا الأمر بالنسبة للإيديولوجيا، وكذلك فيما يتعلق بالاشتراكية، فانهايار وسقوط تجارب معينة لا يعني أن الأفكار خاطئة، ومن يردد ذلك فهو يخدم الدوائر الأمريكية الإمبريالية التي تسوق الليبرالية الغربية السياسية والاقتصادية كطريق وحيد لا بديل عنه في عالم اليوم.

والذي يدعو للتفاؤل والأمل بالنصر والازدهار أنه على رأس بلدينا قائدان شابان ثوريان محنكان، يمتلكان من الشجاعة والحكمة وبعد النظر الكثير الكثير، ففي جمهورية كوريا اليوم القائد كيم جونج أون متمسكاً بثوابت الرئيس الراحل والقائد الراحل، والرئيس بشار الأسد سائراً على خطى ونهج القائد المؤسس لسورية الحديثة (والصديق المحب للرئيس الراحل كيم إيل سونغ ولشعب كوريا) الراحل حافظ الأسد، كلاهما سائراً على الطريق الكفاحي نفسه ضد غطرسة وجبروت الإمبريالية الأمريكية وعملائها.

وأخيراً نؤكد إن كل ما كتب وما يكتب من تحليلات حول فلسفة وفكرة زوتشيه إن دل على شيء فهو يدل على علمية ومصداقية ومنطقية وواقعية فكرة زوتشيه وعبقرية من أبدعها، وحنكة وذكاء من تابع السير على هداها كتابت من ثوابت بناء الدول والمجتمعات. وهي الفكرة الهامة لعصر الاستقلال، المرشدة للبشرية الراضة للظلم والاحتلال وقهر البشرية، والتي أعطت للإنسان كرامته. والواقع يؤكد أن فكرة زوتشيه استولت على قلوب شعوب العالم، لأنها أنارت بوضوح طريق تقدم البشرية نحو عصر الاستقلالية، إذ أنها المرشد المهم الهادي لتحقيق قضية الاستقلالية.

الدكتور صابر بلول

دمشق 17 آذار 2021

سورية- جامعة دمشق- كلية العلوم
السياسية